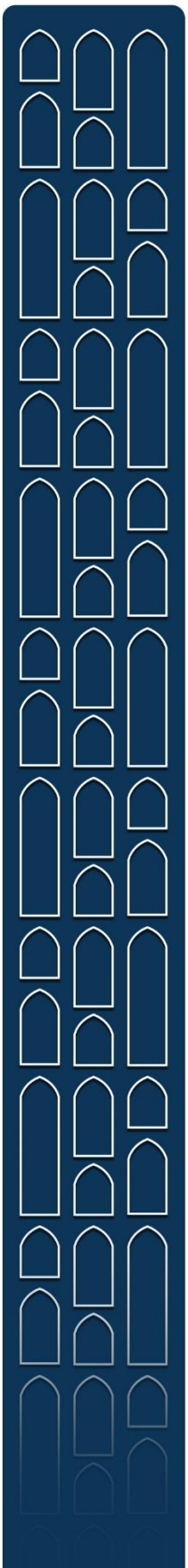

٨

مؤسسة دار الحكمة للثقافة والعلوم الإسلامية

مركز مدرل للتنمية والدراسات الإسلامية

بكاء السماء والأرض

الشيخ علاء سعد

1433هـ - 2012م

بكاء السماء والأرض

سلط الكاتب الضوء على قوله تعالى: (فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ) حيث أن هناك أخبارا ذكرت اصنافا ان السماء والارض تبكي عليهم حين موتهم، وقبل ذكر الاصناف التي ذكرتها الروايات، بين معنى بكاء السماء والارض والاقوال في ذلك.

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى (فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ) الآية ٢٩ من سورة الدخان

الآية الكريمة في جملة آيات تتحدث عن هلاك فرعون وقومه، وفيها اخبار ان السماء والارض لم تبك عليهم وذلك: لهوانهم وحقارتهم عند الله سبحانه وانهم اهون هالك لأنهم لم تكن لهم اثار صالحة ليبكي عليهم أحد او تبكي عليهم الارض والسماء كما سيأتي، وفي كتب المفسرين من الفريقين توجد روايات ذكرت اصنافا ان السماء والارض تبكي عليهم حين موتهم، وقبل ذكر الاصناف التي ذكرتها الروايات، لابد من بيان معنى بكاء السماء والارض والاقوال في ذلك، في تفسير الآية ((فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ)) كما في اغلب كتب التفسير من الفريقين ثلاثة اقوال، قال الطبرسي في مجمع البيان :

الاول: أنه سبحانه أراد المبالغة في وصف القوم بصغر القدر فإن العرب إذا أخبرت عن عظم المصاب بالهالك قالت بكاه السماء و الأرض و أظلم لفقده الشمس و القمر.

الثاني: أن معناه لم تبك عليهم أهل السماء و الأرض لكونهم مسخوطا عليهم عن الحسن فيكون مثل قوله حتى تضع الحرب أوزارها أي أصحاب الحرب و نحوه.

الثالث: أن يكون ذلك كناية عن أنه لم يكن لهم في الأرض عمل صالح يرفع منها إلى السماء وقد روي عن ابن عباس أنه سئل عن هذه الآية فقيل وهل يبكيان على أحد قال نعم مصلاة في الأرض و مصعد عمله في السماء و روى أنس عن النبي (صلى الله عليه واله وسلّم) قال ما من مؤمن إلا و له باب يصعد منه عمله و باب ينزل منه رزقه فإذا مات بكيا عليه، واما الاقوال في معنى بكاء السماء والارض فثلاثة:

القول الاول: ان بكاءهما بكاء حقيقي، كما يظهر من كلمات بعض:

(١) الطبرسي حيث نقل عنه الشيرازي في الأمثل: قال البعض(يريد به الطبرسي): إنّ بكاء السماء والأرض بكاء حقيقي، حيث تُظهر احمراراً خاصاً غير احمرار الغروب والطلوع، كما

نقرأ في رواية: «لما قتل الحسين بن علي بن أبي طالب (عليه السلام) بكت السماء عليه، وبكاؤها حمرة أطرافها»

قال الطباطبائي: و لو بني في معنى بكاء السماء و الأرض على ما يظهر من هذه الروايات لم يحتج إلى حمل بكائهما على الكناية التخييلية.

(٢) الماوردي في تفسيره النكت والعيون وهذا نص عبارته: أنه كالمعروف من بكاء الحيوان ويشبه أن يكون قول مجاهد.

قال الالوسي: ومن أثبت كالصوفية للأجرام السماوية والأرضية وسائر الجمادات شعوراً لائقاً بحالها لم يحتج إلى اعتبار التمثيل وأثبت بكاء حقيقياً لها حسبما تقتضيه ذاتها ويليق بها.

القول الثاني: أنه حمرة أطرافها.

قاله علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) وعطاء وأخرج ابن جرير وابن المنذر، عن عطاء - رضي الله عنه - قال : بكاء السماء حمرة أطرافها، وحكى جرير عن يزيد بن أبي زياد قال : لما قتل الحسين بن علي رضي الله عنهما احمر له آفاق السماء أربعة أشهر ، واحمرارها بكاؤها . قاله الماوردي

قال السيوطي: وأخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن زياد - رضي الله عنه - قال : لما قتل الحسين ، احمرت آفاق السماء أربعة أشهر .وذكر اكثر المفسرين من الفريقين هذا القول ضمن تفسير الآية المباركة

القول الثالث: أنها أمارة تظهر منها تدل على حزن وأسف .

وقال الالوسي : أو أوله (اي اول بكاء السماء والارض)بالحزن أو نحوه وأثبته لها حسب ذلك أيضاً وهو مذهب الصوفية الى هنا اقوال المفسرين في خصوص معنى الآية الكريمة على نحو العموم ومعنى البكاء المنسوب الى السماء والأرض. وهنا تجدر الاشارة الى الاصناف التي ذكرت في الروايات عند تفسير الآية المباركة وهذه الاصناف هي:

الصنف الاول: بكاؤهما عند موت المؤمن

لا يخفى ما للمؤمن من منزلة عند الله سبحانه وتعالى وعند رسوله(صلى الله عليه واله) والائمة الاطهار(صلوات الله عليهم)، وفي الآيات والروايات تعرف ما للمؤمنين من مقام وكرامة ، والكلام في هذا الخصوص طويل، والمهم ان المفسرين ذكروا ان المؤمن اذا مات بكى عليه من الارض مواضع عبادته ، ومن السماء باب عمله وهنا يكفي ذكر روايتين من كتب الفريقين:

(١) قال الشيخ الصدوق اعلى الله مقامه ،في من لا يحضره الفقيه :

عن الامام الصادق عليه السلام: " إذا مات المؤمن بكت عليه بقاع الارض التي كان يعبد الله عزوجل فيها، والباب الذي كان يصعد منه عمله، وموضع سجوده ".

(٢)قال السيوطي في تفسيره: أخرج الترمذي وابن أبي الدنيا في ذكر الموت ، وأبو يعلى وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية والخطيب ، عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من عبد إلا وله في السماء بابان : باب يصعد منه عمله ، وباب ينزل عليه منه رزقه ، فإذا مات فقداه وبكيا عليه ، وتلا هذه الآية { فما بكت عليهم السماء والأرض } وذكر أنهم لم يكونوا يعملون على وجه الأرض عملاً صالحاً يبكي عليهم ، ولم يصعد لهم إلى السماء من كلامهم ولا من عملهم كلام طيب ولا عمل صالح ، فتفقدهم فتبكي عليهم » .

الصنف الثاني: بكاؤهما على فقد العلماء.

لايشك احد ما للعلماء من فضل وعظيم المنزلة عند الله ورسوله (صلى الله عليه واله) والائمة الاطهار(صلوات الله عليهم) وفي المجتمعات، فهم حماة الشريعة وموت البدع وان ابليس عليه اللعنة لا يفرح بشيء اشد من فرحه بموت الفقيه ومع ذلك كله ان السماء والارض تبكي عليه عند موته وتبكي عليه الملائكة، وموت المؤمن الفقيه ثلمة في الاسلام وذلك لانهم حصون الاسلام، وخذ ما ذكره الشيخ الكليني في اصول الكافي في باب

فقد العلماء : عن علي بن أبي حمزة قال: سمعت أبا الحسن موسى بن جعفر عليه السلام يقول: إذا مات المؤمن بكت عليه الملائكة و بقاع الارض التي كان يعبد الله عليها، وأبواب السماء التي كان يصعد فيها بأعماله، وثلم في الاسلام ثلمة لا يسدها شيء لان المؤمنين الفقهاء حصون الاسلام كحصن سور المدينة لها.

وقال السيوطي في تفسيره: وأخرج عبد بن حميد ، عن مجاهد رضي الله عنه قال : إن العالم إذا مات بكت عليه السماء والأرض أربعين صباحاً .

الصنف الثالث: بكاؤها على يحيى بن زكريا والحسين.

ذكر المفسرون في تفسير الآية ان السماء والارض بكيتا على النبي يحيى بن زكريا وعلى الامام الحسين صلوات الله عليهم، وكان بكاؤهما عاما في جميع السماء والارض وهو بخلاف بكائهما على العبد المؤمن والعلماء لان في الروايات ان البكاء على الصنفين الاولين يكون من مواضع مخصوصة (مواضع عبادته و باب رزقه) بخلاف ما ذكر من البكاء على النبي يحيى والامام الحسين وترى في الروايات من كتب الفريقين تصرح بان السماء والارض لم يبكيا على احد الا هما عليهما السلام وهذه بعض الاحاديث في ذلك: فمن طرق الشيعة ما رواه ابن قولويه في كامل الزيارات : عن علي بن الحسين (عليهما السلام)، قال: ان السماء لم تبك منذ وضعت الا على يحيى بن زكريا والحسين بن علي (عليهما السلام)، قلت: اي شيء كان بكاؤها، قال: كانت إذا استقبلت بثوب وقع على الثوب شبه أثر البراغيث من الدم عن عبد الله بن هلال، قال: سمعت ابا عبد الله (عليه السلام) يقول: ان السماء بكت على الحسين بن علي ويحيى بن زكريا، ولم تبك على أحد غيرهما، قلت: وما بكاؤهما، قال: مكثوا أربعين يوما تطلع الشمس بحمرة وتغرب بحمرة، قلت: فذاك بكاؤهما، قال: نعم.

وفيه ايضا عن ابي بصير، عن ابي عبد الله (عليه السلام)، قال: ان الحسين (عليه السلام) بكى لقتله السماء والارض واحمرتا، ولم تبكيا على احد قط الا على يحيى بن زكريا والحسين بن علي (عليهما السلام) عن جابر، عن ابي جعفر (عليه السلام)، قال: ما بكت السماء على احد بعد يحيى بن زكريا الا على الحسين بن علي (عليهما السلام)، فإنها بكت

عليه اربعين يوما واما من طرق العامة فقد روى ابن ابي حاتم في تفسيره قال: عَنْ عُبَيْدٍ الْمُكْتِبِ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ:" مَا بَكَتِ السَّمَاءُ مُنْذُ كَانَتِ الدُّنْيَا، إِلا عَلَى اثْنَيْنِ"، قِيلَ لِعُبَيْدٍ: أَلَيْسَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ تَبْكِي عَلَى الْمُؤْمِنِ؟ قَالَ: "ذَاكَ مَقَامُهُ وَحَيْثُ يَصْعَدُ عَمَلُهُ"، قَالَ:" وَتَدْرِي مَا بُكَاءُ السَّمَاءِ؟"، قَالَ: لا، قَالَ: "تَحْمَرُّ وَتَصِيرُ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ، إِنَّ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا لَمَّا قُتِلَ، احْمَرَّتِ السَّمَاءُ وَقَطَّرَتْ دَمًا، وَإِنَّ حُسَيْنَ بْنَ عَلِيٍّ يَوْمَ قُتِلَ احْمَرَّتِ السَّمَاءُ" ونقل هذا الحديث عن ابن ابي حاتم ابن كثير في تفسيره والسيوطي في الدر المنثور.

فانت ترى ما ذكره ابن قولويه من الروايات عن الأئمة الأطهار صلوات الله عليهم صريحة بنفي بكاء السماء والارض على احد الا على النبي يحيى والامام الحسين صلوات الله عليهما ومثل هذه الروايات مشهورة عند الطائفة الحقة (اعزهم الله تعالى) وقد عقد الشيخ ابن قولويه بابا وعنونه ب((الباب (٢٨) بكاء السماء والارض على قتل الحسين (عليه السلام) ويحيى بن زكريا (عليهما السلام))) ونقل عنه كل من تأخر عنه اعلى الله مقامه واما الرواية الاولى عن الامام زين العابدين صلوات الله عليه فإنها صريحة ان السماء اذا استقبلت بثوب فانه يقع عليه الدم.

واما ما ذكره ابن ابي حاتم فهي تؤيد ما تقدم من ان البكاء على المؤمن والعالم له صفة الخصوص وان بكاءهما على النبي يحيى والامام الحسين له صفة العموم فلا تنافي بين الروايات. ولكن تراه ذكر عند مقتل النبي يحيى عليه السلام ان السماء احمرت وقطرت دما وعند مقتل الامام الحسين صلوات الله عليه احمرت السماء ولم يذكر ان السماء قطرت دما بيد ان الروايات والاخبار الواردة في هذا الخصوص تقول ان السماء والارض لم تبكيا على احد الا يحيى والحسين صلوات الله عليه وهي ظاهرة بان هناك وجه تشابه بين المقتلين فلست ادري لماذا ذكر ان السماء احمرت وقطرت دما عند مقتل يحيى واحمرت فقط عند مقتل الحسين؟

وقفة مع ابن كثير في تفسيره: قال في تفسير الآية:(لم تكن لهم أعمال صالحة تصعد في أبواب السماء فتبكي على فقدهم، ولا لهم في الأرض بقاع عبدوا الله فيها فقدتهم،) ان بكاء السماء حمرتها وذكر روايتين عن النبي وواحدة عن امير المؤمنين علي وعن ابن عباس خبرين وقول لمجاهد فهذه ستة اخبار في بكاء السماء والارض على موت المؤمن ، ولم يشكك في اي واحد منها :وذكر احمار السماء مرتين ولم يشكك ، ولكنه ذكر كلاما لا يليق بمن يدعى له انه الحافظ ابن كثير وهذا نص كلامه : ((وذكروا (٢) أيضًا في مقتل الحسين أنه ما قلب حجر يومئذ إلا وجد تحته دم عَبِيط، وأنه كسفت الشمس، واحمر الأفق، وسقطت حجارة. وفي كل من ذلك نظر، والظاهر أنه من سُخْف الشيعة وكذبهم، ليعظموا الأمر -ولا شك أنه عظيم-ولكن لم يقع هذا الذي اختلقوه وكذبوه،))انتهى موضع الحاجة من كلامه .

وفيه : اولا: قوله (وذكروا أيضًا في مقتل الحسين -وفي نسخة اخرى –وذكر-) فمن هم الذين ذكروا هذه الاقوال الاتية هل هم المؤرخون ام علماء الرجال ام المفسرون ، فان كانوا من قومه فان الحجة عليه لا له ، وان كان من الشيعة فلماذا ذكره في تفسيره ولماذا لم يذكر ولو مصدرا واحدا وليقل ما يقوله في المسألة، ثانيا: قوله (أنه ما قلب حجر يومئذ إلا وجد تحته دم عَبِيط) فلا ادري هل ان هذا الحافظ !! لم يطلع على كتب قومه ففي كتب التراجم وغيرها ما يشهد بعكس دعوى وبجهل هذا الحافظ !! وهنا اكتفي بنقل الذهبي قال في سير اعلام النبلاء في ترجمة الامام الحسين الشهيد: (عن معمر، قال: أول ما عرف الزهري أنه تكلم في مجلس الوليد، فقال الوليد: أيكم يعلم ما فعلت أحجار بيت المقدس يوم قتل الحسين ؟ فقال الزهري: بلغني أنه لم يقلب حجر إلا وجد تحته دم عبيط،) ومن نقل هذا الخبر كل من ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق وابن منظور في مختصر مدينة دمشق وابن حجر في تهذيب التهذيب والمزي في تهذيب الكمال والعصامي في سمط النجوم العوالي وغيرها كثير فما اقل اطلاع ابن كثير،

القول الثالث: (وأنه كسفت الشمس،)

قال الطبراني في المعجم الكبير: وعن أبي قبيل قال: لما قتل الحسين كسفت الشمس كسفة بدت الكواكب نصف النهار حتى ظننا أنها هي.

وذكره عن ابي قبيل البيهقي في السنن الكبرى، وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق ،وابن منظور في مختصر تاريخ مدينة دمشق، وابو نعيم في معرفة الصحابة وغيرهم كثير وهم افطن وافهم من ابن كثير.

رابعا: قوله (واحمر الأفق،) قال الذهبي في نفس المصدر: المدائني: عن علي بن مدرك، عن جده الاسود بن قيس، قال: احمرت آفاق السماء بعد قتل الحسين ستة أشهر ترى كالدم.

بل اكثر من احمرار السماء ،قال ابن منظور في مختصر تاريخ مدينة دمشق ونقله الذهبي ايضا في السير واللفظ للأول: وعن جعفر بن سالم قال حدثتني خالتي أم سالم قالت: لما قتل الحسين مطرنا مطراً كالدم على البيوت والجدر، قال: وبلغني أنه كان بخراسان والشام والكوفة.

قال ابن الجوزي وحكمته أن غضبنا يؤثر حمرة الوجه والحق منزه عن الجسمية فأظهر تأثير غضبه على من قتل الحسين بحمرة الأفق إظهارا لعظم الجناية، نقله ابن حجر في الصواعق،، وبما تقدم من تكذيب دعوى هذا الحافظ الكبير !!! لا داعي لرد كل تخرصاته ومزاعمه الواضحة الفساد ولكن قوله (هذا من سخف الشيعة) يكفي في رده: ان الشيعة هم اهل الدليل ولم يطلقوا الكلام بدون حجة وانما صاحب السخف هو الذي يدعي ما ليس له به علم كما حال هذا الحافظ الجاهل بكتب قومه وابناء جلدته.

والمستفاد من كل ما تقدم :هو ان تعظيم الشعائر الحسينية وكل ما تقوم به الشيعة من مراسم في خصوص المواسم قد قام الدليل والحجة على رجحانه بل كما يذهب اليه علماؤنا الابرار الى استحباب هذه الشعائر وللهم الحجة على المانعين من مصادرهم

ومصادر خصومهم،، والافتتاح كان بأية قرآنية والختام برواية عن الامام السجاد صلوات الله عليه، قال السيد بن طاووس في اللهوف: علي بن الحسين عليهم السلام ، في خطبة خطبها حين قدم من كربلاء إلى المدينة: وهذه الرزية التي لا مثلها رزية، أيها الناس فأي رجالات منكم يسرون بعد قتله ؟ [أم أي فؤاد لا يحزن من أجله ؟] أم أية عين منكم تحبس دمعها، وتضن عن انهمالها، فلقد بكت السبع الشداد لقتله، وبكت البحار بأمواجها، والسماوات بأركانها، والارض بأرجائها، والاشجار بأغصانها، والحيتان ولجج البحار، والملائكة المقربون، وأهل السماوات أجمعون،

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على أشرف الخلائق اجمعين ابي القاسم محمد واله الطاهرين.